

لهروب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٣ —

شاردة الخيال ضائعة الأمل مستطارة القلب ؟
أَمْ ترى صوتي يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبنتنا ستة أشهر
من عمر الزمان كأنها من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات ؟
إنه ليخيّل إليّ أن هذا الحديث الذي أكتبه عنها وعنه هو
رسالة من الغيب إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة ، من الحبيب
الذي أحبا أعنف الحب وأرقه وما تراءى لها مع ذلك في عمره
الطويل إلا الرجل القاسي الذي حطم قلبها بقسوته وكبريائه ،
ومات وما تلقت رسالته الأخيرة فنفذت روحه من أقطار
السموات لتليها على وفيها المندرة والاستغفار ...

آه لو تدرين كم كان يحبك أيها الحبيبة ! .. فهل كنت ..؟
ولكن ... ولكن لا سبيل إلى ما فات ... !

لقد أحبا جهد الحب ومداه ، حبا أضل نفسه وشرّد فكره
وسلبه القرار ؛ ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ،
ولكن حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر ، وخلوة
الروح إلى الروح في مناجاة طويلة كأنها تسبيح وعبادة ؛ وأسرف
عليه هذا الحب حتى عاد في غمراته خلقاً بلا إرادة ، فليس له من
دنياه إلا هي ، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه !

والرافعي رجل — كان — له ذات وكبرياء ؛ فأين يجد من
هذا الحب ذاته وكبرياءه ؟ هكذا سأله نفسه !

وأحبا أدبية فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سماءه
وتخلق في واديه وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق في آفاق
الشعر والحكمة والخيال ؛ فما التقيا مرة حتى كان خديهما فتونا
من الشعر وشذرات من الفلسفة وقليلاً من لغة المشاق في همس
من لغة الميول ... وقال لها مرة : « إن الحب يا عزيزتي ... »
قالت : « إن فلسفة الحب ... » قال : « بل أعني حقيقة الحب
وممناء ... » قالت : « دع عنك يا حبيبي ... إن أحلام الحب هي
شيء غير الحب ، أفأنت تريد ... ؟ » فاختلطت شفتاه وأطرق ،
وراح يسأل نفسه : « ما الحب وما فلسفة الحب ؟ يا ضيعة التي
إن كان الحب شيئاً غير الذي في نفسي ! » وتحدث ضميره في
ضميرها فابتمت وهي تقول : « ... أنا ما أحببتك رجلاً بل

١ — « إن في الرجل شيئاً يتخذ المرأة منه وإن هلك
بحبها ، وإن هدمت عيناها من ساقاته وجوانبه : فيه الرجولة
إذا كان شهياً ، وفيه الضمير إذا كان شريفاً ، وفيه الدم
إذا كان كريماً . فوالذي نفسي بيده لا تموز المرأة بشيء
من ذلك ساعة تحين عواطفه ، وينفر طائر حله من صدره ،
إلا غاذت — والله — بماذا يحبها وعصها ويعد على
طهارتها جناح ملك من الملائكة »

٢ — « ... ويسرف على بعضها أحياناً فأتلعب عليها
في زفرات كمعة الحريق حين ينطبق مثل الفلك من جهنم
على مدينة فاعمة فيضغ جذرائها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف
على حبها أحياناً فينحط قلبي في مثل غمرات الموت وسكراته
يتلوح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين قمة تقباً ، وبين غاية
تحول ، وكأنه لا عمل لي إلا أن أصعد منة درجة لأهبط
منة درجة ... ! »

٣ — « لغتها وما أريد الهوى ولا تعمد قلبي ، ولا
أحب أن فيها أموراً ستول ما لها ؛ وكنت أظن أن المستحيل
تسان : ما يستحيل وقوعه فلا تغضى إليه ، وما يمكن وقوعه
تسهله فلا يغضى إليك ، ولكن حين توجد المعجزة تبطل
الحيلة ؛ ومتى استوردك القدر لئلا لا مفر منه ، أقبل بك
على ما كنت منه تفر »

٤ — « ... إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات
فكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سليلي أبوة ما شهدت
لها بأكثر من هذا حرفاً ، ولو كان دمي من أعضائها ما نفصتها
من هذا حرفاً ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التي أتمهد
لها ... ! »

٥ — « ... دعني أقول لك : إنني أبغض من أحبها ..
وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالبحر : ظاهره له
ألم وباطنه له ألم ! »

٦ — « ... وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل
الإنساني إذا هو تخكم في الدين ، يأتي البغض من هذا العقل
بيته إذا هو تخكم في الحب ! » (الرافعي)

شعر وفلسفة ، وهب وكبرياء

أترى صوتي يبلغ إليها وهي في مستشفاهها بالشام ذاهلة القلب

كان — رحمه الله — يرى في شدة الإحساس بالرجولة وفي سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طرقي النبوغ ، أو أحد طرقي النبوة كما كان يقول ؛ فإما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها في نفسه إلا أن يسرع في الفرار . وكثيراً ما كان يقول : « الفرار الفرار ؛ إنه الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ... »

وقالت له نفسه : « ما أنت وهذا الحب الذي سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء ويوشك أن يهوى بك من وسوسة النفس وقتنة الهوى إلى أرواح البشرية ... ؟ »
فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد ...

وكان يحبها ليجد في حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده ، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة ؛ ووجد في كل أولئك يتابع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه ، ويتفعل بها جنانها ، ويضيء بها فكره ؛ وكان آخر حبه الألم ، وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة ...
وقالت له نفسه : « ها قد بلغت من الحب ما كنت ترجو ، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها كُفِّ كرم ... ! »

وهي فتاة ذات جلال وقتنة ، ولها لسان وبيان ، وما يمتعها دينها ولا شيء من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع ، يضم من شعراء العربية ورجالها أشتاتاً لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعبق الشعر وعطر المرأة الجميلة ؛ أقترامهم يجتمعون في دارها كل أسبوع لتتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث ؟
والرافعي غيور شمس كثير الأثرة لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة ، أو هو نفسه رأس الجماعة ...
وقالت له نفسه : « أنت هنا وحيدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوى وحبيا ... ؟ »

وكانت الإقطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله : من أجل أن له ذاتاً وكبرياء ، وما يريد أن تغني ذاته وكبرياؤه في امرأة ؛

فكراً وروحاً ونفساً شاعرة ، وأنت بكل ذلك ملء نفسي وملء قلبي ؛ فلا تلتصق في طباع أنثى وإلا ضل ضلالاً أيها الحبيب ... »
قال : « فهل رأيتني يا حبيبتي إلا فكرة تطيف أبدأ بك ، وروحاً ترُفرف حوالياً ، ونفساً تغترف الشعر والحكمة من وحي عينيك ... ؟ » قالت : « دع عنك ذكر عيني يا حبيبي . إن الحب ليس هناك ، إن الحب ... » قال : « لا يتحدثني عن الحب . يخيل إلي أنني أعرفه لأنني أجدمسّه على قلبي كالذغ الجمر ، ولكن آه ، ولكنك أنت ... »

وقالت له نفسه : « إنك يا صاحبي تضرب في يدياء ؛ إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب ، فهل أحبيتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة ؟ ولكنك بذلك لن تجد منها الحب ، إن الحب من لغة القلب ، أما هذه ... »
وكان يحبها أديبة فيلسوفة شاعرة ، فعاد يواعد بينه وبينها أنها فيلسوفة شاعرة ... !

وامرأة هي كانت — إلى أديبها وفلسفتها — « فتنة » خلقت امرأة ، فإذا نظرت إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك : إذا لم تأت إلي فانا آتية إليك ... وهي أبدأ تشعر أن في دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها إلا على حالة من هذين ، حتى ليظن كل من حادها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ...

« رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء ؛ فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها ... »
« أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة ؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن تري عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع فلا تمتاز فيها بالسر ولكن بالحب ... وتنظر نظرة الغزال المذغور ألهم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزاً يتوجس في كل حركة صائداً يطلبه ... » (١)

والرافعي رجل كان — على دينه وخلقه ومروءته — ضعيف السلطان على نفسه إذا كان بإزاء امرأة ؛ فإما هو إلا أن يري واحدة لها ميزة في النساء حتى يتحرك دمه وتنفعل أعصابه ؛ وما

إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودع صاحبه بين تخطج ، ومضى ...

واتتهى الاحتفال ، ووقفت (هي) تدبر عينها في المكان
فما استقرتا على شيء ؛ ووجدت في نفسها الجرأة على أن تقول :
« أين الرافي ؟ » فما وجدت جواباً ... وكان الرافي وقثد جالساً
إلى مكتبته ينشئ قصيدة لمجلة المقتطف عن بحث الحب ... ! وكان
آخر لقاء ... !

ولقيت الرافي في خريف سنة ١٩٣٢ ، فترسنا في الحديث
عن الحب ، فكشف لي عن صدره في عبارات محمومة ، وكلمات
ترتمش ، ثم قال : « ... وإن صوتاً ليهنئ بي من النيب أن
الماضي سيمود ، وأنتي سألقاها ، وسيكون ذلك في تمام عشر
سنين من رسالة القطيعة : في يناير سنة ١٩٣٤ ... » وأخذ
يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهراً سيكون هذا اللقاء ... إن
قلبي يحس ، بل إنني لموتن ... بعد أربعة عشر شهراً ، في تمام
السنة العاشرة منذ فارقتها مغضباً ، سنلتقي ثانية ويعود ذلك الماضي
الجميل ، إنها تنتظر ، وإنني أنتظر ... ! » ، وظل على هذا اليقين
أشهرًا وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد ... !

ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهراً بعدها وما
تحقق أمله في اللقاء ، حتى لقي الله ... !

هذا هو الرافي العاشق ، جلوت صورته كما عرفته ؛ أما هي ،
أما صاحبه التي كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟
وما كان هذا الحب ، وماذا كانت غايته ؟

هذا حديث موعده العدد القادم ، فإلى اللقاء

« شبرا » محمد سعيد العربي

ومن أجل أنها فيلسوفة وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب في
قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه رجل له دين ومروءة وزوجة
ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد الألم في حبها
فوجد ينبوع الشعر الذي كان يفتقد ؛ ومن أجل أن الرافي النور
الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ... !

وخيل إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة في يناير سنة
١٩٣٤ أنه ينفذها ، وأن هذا الحب الذي قطعه عن دنيا الناس
عاماً بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه القدر في مَدْرَجَةِ الفناء ،
وأن نفساً كانت في الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ...

وأحس في نفسه حديثاً طويلاً يريد أن يفضي به ، وشعر
كأن في قلبه ناراً تَلْطِئُ ، واصطُرعت في نفسه ذكريات
وذكريات ، وخيل إليه أنه يكاد يَحْتَقُ ؛ فصاح من كل أولئك
منيفلاً محققاً يقول : « أيتها المحبوبة ، إنني أبغضك ... إنني
أبغضك أيتها المحبوبة ! »

ليت شعري ، أكان الرافي يعني ما يقول ؟ أكان على يقين
حين يزعم أنه ينفذها ؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكبراً من
كبريائه العانية فمأه البغض وما هو به ولكنها ثورة الحب حين
يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبقى
فيه شيء على حقيقته ؟

كلا ، ما أبغض الرافي صاحبه يوماً منذ كانت ولا استطاع
أن يفك نفسه من وثاقها ، وما هذه الثورة التي ألهمته كتابته
« رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر » إلا لون من ذلك الحب
وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان ؛ فلما ثابت إليه نفسه
نزع به الحنين إلى الماضي ولكن كبريائه وقفت في سبيله ، فظل
حيث هو ولكن قلبه ظل يتنزي بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبه إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوة إلى
حفلة خيرية لتخطب ، وكان الرافي مدعواً لمثل مادعيت له .
وعلى غفلة التقت العيون ، فدار رأس الرافي وذُهب به ، وعاد
الزمان القهقري لينشر ماضيه على عينيه ، وزلزلت نفسه زلزالاً
شديداً حتى أوشك أن تفشاه غاشية ، وحاول أن يتحدث
فوقفت الكبرياء بين قلبه ولسانه ؛ وخشى أن يفتضح فنهض
عن كرسيه منطلقاً إلى الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده
من حضرات المشتركين فليفضل بطلبه من الإدارة